

الأدب . وكلام الصوفية فيه<sup>(\*)</sup>

## فصل

وأما الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فاقرآن مملوء به ، فأمر الأدب معه كمال التسليم له والانتقاد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمله معارضة خيال باطل بسميه معقولا ، أو بحمله شبهة أو شككا ، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانتقاد والاذعان ، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإيابة والتوكل ، فيما توحيدها لانجاة للعبد من عذاب الله الأليما - توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول ، فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه ، وذوي مذهبه ومطائفه ومن يعظمه ، فإن أذنوا له فذمه وقبل خبره ، وإلا فإن طلب السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم ، والأحرفه عن مواضعه ، وسعى تحريفه تأويله وحمله فقال : توؤله ونمعله . فلأن يلتقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق ما خلا الشرك بالله خيره من أن يلقاه بهذه الحال

وقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء قلت له : سألتك بالله لو قدر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه - أكان فرضا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه ؟ أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس ومعقولهم ؟ فقال : بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه . قلت : فما الذي نسخ هذا الفرض عنا ؟ وبأي شيء ؟ فوضع أصبعه على فيه وبقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة

هذا أدب الخواص معه ، لا مخالفة أمره والشرك به ، ورفع الأصوات وازعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وإن استفاد منه معرفة الله أو يتلقى منه أحكامه . بل الممول في باب معرفة الله على المعقول المنهوك المتحيرة

(\*) نموذج من كتاب مدارج السالكين للإمام العارف الحق ابن قيم الجوزية . وقد اطال في بحث الأدب مع الله تعالى ثم قال

المتناقضة ، وفي الاحكام على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة انما تقرأها تبركا ، لا انا نتلقى منها اصول الدين ولا فروعه . ومن طلب ذلك ورامه عادينه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأنه ( بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون \* حتى اذا أخذنا مترفيهم بالمذاب اذا هم يجأرون \* لا يجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون \* قد كانت آياتي تنلى عليكم فكنتم على أعقابكم تكصون \* مستكبرين به سامرا تمجرون \* أفلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين ؟ \* أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم الحق كارهون \* ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون \* أم نسأهم خراجا ؟ فخراج ربك خير وهو خير الرازقين \* وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم \* وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كيون )

والناصح لنفسه العامل على نجاتها ، تدبر هذه الآيات حق تدبرها ، ويتأملها حق تأملها ، وينزلها على الواقع يرى العجب ، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا « فالحديث لك واسمي باجارة » والله المستعان

ومن الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ان لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا اذن ولا تعارف حتى يأمر هو وينهى ويأذن ، كما قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ) وهذا باق الى يوم القيامة ولم ينسخ . فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ، كالتقدم بين يديه في حياته ، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم . قال مجاهد رحمه الله : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه . وقال الضحاك لا تقضوا أمرادون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابو عبيدة : تقول العرب لا تقدم بين يدي الامام وبين يدي الاب . أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه ، وقال غيره : لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهي .

ومن الادب معه أن لا ترفع الاصوات فوق صوته فانه سبب لحبوط الاعمال ، فإذا الغلن برفع الآراء وتناجج الافكار على سنته وما جاء به ؟ ترى ذلك موجبا لقبول الاعمال ، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها ؟

ومن الادب معه أن لا يجمل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى ( لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ) وفيه قولان للمفسرين ( أحدهما ) انكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا بل قولوا : يا رسول الله يا نبي الله ! فعلى هذا المصدر مضاف الى المفعول ، أي دعاءكم الرسول . ( الثاني ) ان المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا ان شاء أجاب وان شاء ترك ، بل اذا دعاكم لم يكن لكم بد من اجابته ، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة . فعلى هذا المصدر مضاف الى الفاعل ، أي دعاءه اياكم

ومن الادب معه انهم اذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد مذهباً في حاجته حتى يستأذنه ، كما قال تعالى ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معاً على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ) فاذا كان هذا مذهباً مقيداً بحاجة عارضه لم يوسع لهم فيه الا باذنه ، فكيف يذهب مطلق في تفاصيل الدين أصوله وفروعه دقيقة وجليله ؟ هل يشرع الذهاب اليه بدون استئذانه ؟ ( فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون )

ومن الادب معه ان لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ، ولا يمارض نصح بقياس بل تهذر الاقيسه وتلقى (١) لنصوصه ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته تخيال يسميه أصحابه مقولاً ، نعم هو مجبول ، وعن الصواب معزول . ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد ، فكل هذا من قلة الادب معه صلى الله عليه وسلم ، وهو عين الجرأة

### فصل

وأما الادب مع الخلق فهو مما ملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة أدب ، والمراتب فيها أدب خاص ، فمع الوالدين أدب خاص ، وللأب منها أدب هو أخص به ، ومع العالم ادب آخر ، ومع السلطان ادب يليق به ، وله مع الاقران أدب يليق بهم ، ومع الاجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي انسه ،

ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته .  
ولكل حال أدب - فلا كل آداب وللشرب آداب ، وللكوب والدخول  
والخروج والسفر والاقامة والنوم آداب ، وللبول آداب ، وللكلام آداب ، وللسكوت  
والاستماع آداب .

وأدب المرء عنوان سمادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبوارده ، فما  
استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الادب  
فانظر الى الادب مع الوالدین كيف نجى صاحبه من حبس الفارحين اطبقت عليهم  
الصخرة ، والاخلال به مع الام تأويلا واقبالا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم  
صومعته ، وضرب الناس له ورميه بالفاحشة ، وتأمل أحوال كل شقي ومفتن ومدبر  
كيف تجرد قلة الادب هو الذي ساقه الى الحرمان ، وانظر قلة أدب عرف مع خالد  
كيف حرمه السلب بعد ان برد يديه ، وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي  
صلى الله عليه وسلم في الصلاة ان يتقدم بين يديه فقال : ما كان ينبغي لابن ابي  
قحافة ان يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف أورثه مقامه والامامة  
بالامة بعده ، فكان ذلك التأخر الى خلفه ، - وقد أوما اليه ان اثبت مكانك -  
جزا لا سعي الى قدام ، بكل خطوة الى وراء مراحل الى قدام تنقطع فيها اعناق  
المطي . والله اعلم

### فصل

قال صاحب المنازل (الادب حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان)  
هذا من احسن الحدود . فان الانحراف الى احد طرفي الغلو والجفاء هو قلة الادب ،  
والادب الوقوف في الوسط بين الطرفين ، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها  
ولا يتجاوزها ما جعلت حدودا له ، فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين ، والعدوان  
هو سوء الادب . وقال بعض السلف : دين الله بين الغالي فيه والجاني عنه ، فإضاعة  
الادب بالجفاء كن لم يكمل اعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وفعلها ، وهي قريب من مئة ادب ما بين واجب ومستحب .

واضعته بالقلو كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها، والجهر بالاذكار والدعوات التي شرعت سرا، وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه، كالشهادتين الاولي والسلام الذي حذفه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على ما فعلته سراق الصلاة والقارون لها ويشتهونه، فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه، وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات، ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذهاب الى البقيع فيتضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الاولى. فهذا هو التخفيف الذي أمر به، لا تقرأ الصلاة وسرقتها، فان ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا. وهو كأكل المضطر في المحمص ما يسد به رمقه، فليته شبع على القول الآخر. وهو كجائع قدم اليه طعام لذيذ جدا فأكل منه قمة أو قمتين فماذا يفنيان عنه؟ ولكن لو أحسن مجموعا لما قام عن الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك، لكن القلب شبعان من شيء آخر.

ومثال هذا التوسط في حق الانبياء عليهم السلام ان لا يغلو فيهم كما غلت النصراني في المسيح، ولا يجفوا عنهم كما جفت فيهم اليهود، فالنصارى عبدوهم، واليهود قتلوهم وكذبوهم، والامة الوسط آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاؤا به.

ومثال ذلك في حقوق الخلق ان لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله او عن تكميلها او عن مصلحة دينه وقلبه، وان لا يجفوا عنها حتى يطلها بالكليّة، فان الطرفين من المدوان الضار، وعلى هذا الحد، فحقيقة الادب هو العدل، والله اعلم

### فصل

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات ، الدرجة الاولى منع الخوف ان يتعدى الى

الايأس (١) وحبس الرجاء ان يخرج الى الامن ، وضبط السرور ان يضاهي الجراءة ﴿

يريد انه لا يدع الخوف ينفذ به الى حد يوقه في القنوط والياس من رحمة الله ، فان هذا خوف مذموم . وصمت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حد الخوف ما حيزك عن معاصي الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج اليه . وهذا الخوف الموقع في الاياس اساءة ادب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجبل بها .  
 واما حبس الرجاء ان يخرج الى الامن . فهو ان لا يبلغ به الرجاء الى حد يامن معه الخربة ، فانه لا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون . وهذا اغراق في الطرف الآخر ، بل حد الرجاء ما طيب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة ، فاذا انقطعت وقفت السفينة ، واذا زادت اقتها الى المهالك ، واذا كانت بقدر اوصلت الى البنية .

واما ضبط السرور ان يخرج الى مشابهة الجراءة ، فلا يقدر عليه الا الاقوياء .  
 او باب العزائم الذين لا تستغرم السراء فتقلب شكرهم ، ولا تضيفهم الضراء فتقلب صبرهم ، كما قيل :

لا تغلب السراء منهم شكرهم كلا ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبة وتشبهه في صفاته ، ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فاذا نزلت على القلب تلك المواهب وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره ، من عدتها وحواصلها ، فالسترسل معها الجاهل بها يدعها تستوفي ذلك ، فينسا هو في موهبة للقلب والروح وعدة وقوة له ، اذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالت به وطفقت لآلتها رأت غناها به ، والانسان يظن ان رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو اعظم خطرا واجل قدرا من المال ، بما لانسبة بينهما من علم او حال او معرفة او كشف ؟ فاذا صار ذلك من حاصلها انصرف العبد به - ولا بد - الى طرف مذموم من جراءة او شطط او ادلال ونحو ذلك ، والله كم ههنا من قبيل وسليب وجريج يقول : من اين آتيت ؟ ومن اين ذهبت ؟ ومن اين اصبحت ؟ واقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك ان يفتاق عنه باب المزيد ، وهذا المارفون وارباب البصائر اذا نالوا شيئا من ذلك انصرفوا الى طرف الفل والانكسار ومطالمة عيوب النفس ، واستدعوا حارس الخوف ،

وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا الى أقرب المخلوق من الله وأكرمهم عليه وادناهم منه وسيلة واعظمهم عنده جاها ، وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قربوس سرجه انحنافا وانكسارا وتواضعا لربه تعالى في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها ان يملكها سرورها وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفضها الى عنان السماء ، فالرجل من صان فتحه ونصيبه من الله وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به ، والماجر من جاد لها به ، فياله من جود ما أقبحه وسماحة ما اسفه صاحبها ! والله المستعان .

### فصل

قال ﴿الدرجة الثانية الخروج من الخوف الى ميدان القبض ، والسمود (١)﴾

عن الرجاء الى ميدان البسط ، ثم الترقى عن (٢) السرور الى ميدان المشاهدة ﴿ ذكر في الدرجة الاولى كيف يحفظ الحدين المقامات حتى لا يتعدى الى غلو أوجزاء ، وذلك سوء أدب ، فذكر من الخوف ان يخرج الى اليأس (٣) والرجاء ان يخرج الى الامن ، والسرور ان يخرج الى الجراءة . ثم ذكر في هذه الدرجة أدب الترقى من هذه الثلاثة الى ما يحفظه (٤) عليها ولا يضيها بالكلية ، كان في الدرجة الاولى لا يبالغ به بل يكون خروجه من الخوف الى القبض ، يعني لا يزال الخوف بالكلية ، فان قبضه لا يؤيسه ولا يقنطه ولا يحمده على مخالفة ولا بطالة ، وكذلك رجائه لا يعتمد به عن ميدان البسط ، بل يكون بين القبض والبسط ، وهذه حال الكمال ، وهي السير بين القبض والبسط ، وسروره لا يقصد (٥) به عن ترقيه الى ميدان مشاهدته ، بل يرقى بسروره الى المشاهدة ، ويرجع من رجائه الى البسط ، ومن خوفه الى القبض . ومقصوده ان ينتقل من اشباح هذه الاحوال الى ارواحها ، فان الخوف شبح والقبض روحه ، والرجاء شبح والبسط روحه ،

(١) في ب « والسمود » (٢) وفيها « من » (٣) وفيها « الا يأس » (٤) كتب

في هامش ن « لهه بمنظها » وكان يجب ان يزيد كلمة « عليه » (٥) ب « يقصد »

والسرور شبع والمشاهدة روحه ، فيكون حظ ( ١ ) من هذه الثلاثة ارواحها وحقائقها ، لاصورها ورسومها .

### فصل

قال (الدرجة الثالثة معرفة الادب، ثم الفناء (٢) عن التأديب بتأديب الحق ، ثم الخلاص من شهود اعباء الادب ) قوله « معرفة الادب » يعني لا بد من الاطلاع على حقيقته في كل درجة ، وانما يكون ذلك في الدرجة الثالثة ، فانه يشرف منها على الادب في الدرجتين الاولين ، فاذا عرفه وصار له حالا فانه ينبغي له ان يفنى عنه ، بان يطلب عليه شهود من اقامه فيه فينسبه اليه تعالى دون نفسه ، ويفنى عن رؤية نفسه وقيامها بالادب بشهود الفضل لمن اقامه فيه ومته ، فهذا هو الفناء عن التأديب بتأديب الحق. قوله « ثم الخلاص من شهود اعباء الأدب » يعني انه يفنى عن مشاهدة الأدب بالكلية لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب ، فنأوؤه عن الادب فيها هو الأدب حقيقة ، فيستريح حينئذ من كلفة حل اعباء الأدب وأثقاله ، لان استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئا من اعباء الادب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) ن « حفظه » (٢) في نسخة المتن « الفنى »